سلسلة ابطال من السودان

٢

عبد الله التعايشي



علي يوسف علي

دار الجيل
بيروت

سلسلة ابطال من السودان



القصة الثانية

عبد الله التعايشي

علي يوسف علي
المستشار للشؤون الإسلامية والأوقاف
السفارة السودانية - جدة

رسوم : عبد المنعم علي صاغة

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وُلِدَ عَبْدُاللهِ ٱلتَّعَايْشِي فِي جَنُوبِ دَارْفُور، وَٱلتَّعَايِشَةُ فَرْعٌ مِن فُرُوعِ قَبِيلَةِ « ٱلْبَقَّارَة ». وَكَانَ عَبْدُاللهِ مِن بِدَايَةِ صِغَرِهِ يَمِيلُ إِلَى حُبِّ الْفُرُوسِيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ. وَتَعِبَ وَالِدُهُ « مُحَمَّد تُورْشِين » كَثِيراً لِيُعَلِّمَهُ كَإِخْوَانِهِ الصِّغَارِ مِثْلَ يَعْقُوب، وَهَارُون، والسَّمَّانِي. فَكَانَ« عَبْدُاللهِ » وَهُوَ أَكْبرُهُم لاَ يَرْغَبُ فِي التَّعْلِيم، وَلَكِنَّهُ يَرْغَبُ في أَن يَعْرِفَ أَخْبَارَ الْأَبْطَالِ وَٱلشُّجْعَانِ فِي التَّارِيخ.



كَانَ عَبْدُاللهِ التَّعَايْشِي رَجُلاً قَويَّ الجِّسْمِ، طَوِيلَ القَامَةِ، لَوْنُهُ قَمْحِيٌّ أَصْفَر. فِي صِغَرِهِ أُصِيبَ بِمَرَضِ الجُّدَرِي فَبَقِيَتْ فِي وَجْهِهِ آثَارٌ لا تُمْحى.

وَلمَّا قَامَتِ الْحَربُ بَيْنَ « الزُّبَيْر بَاشا » وَقَبِيلَةِ « الرِّزِيقَات » كَانَ « عَبْدُ اللهِ التَّعَايْشِي » يُحَارِبُ مَعَ الرِّزِيقَات ضِدَّ الزُّبَيْر، وَقَبَضَ عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ وَحَكَمَ عَلَيْهِ بالْإِعْدَامِ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَمْ يَقْتُلْهُ. وَبَعْد مُدَّةٍ مِّنَ الزَّمَنِ أَرْسَلَ عَبْدُاللهِ رِسَالَةً لِّلزُّبَيْر قَالَ فِيهَا: « إِنَّنِي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ، أَنَّكَ أَنتَ الْمَهْدِيّ وَأَنَا خَلِيفَتُكَ ». فَغَضِبَ الزُّبَيْرُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ وَمَنَعَهُ مِنْ أَن يَقُولَهُ مَرَّةً ثَانِيَة.

فِي أَحَدِ ٱلأَيَّامِ نَادَى « تُورْشِين » أَهْلَ بَيْتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى ٱلْحَجِّ وَأَنْتُم مَعِي ». سَافَرَ تُورْشِين مَعَ أُسْرَتِهِ إِلَى ٱلْحَجِّ وَمَعَهُم

إِبْنُهُ ٱلْكَبِير « عَبْـدُاللهِ ». وَٱسْتَمَرَّ السَّفَرُ زَمَناً طَوِيلاً وَلَكِنَّهمُ كَانُوا يَسْتَرِيحُونَ مِن مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فِي سَفَرِهِم. وَذَاتَ مَرَّة نَزَلُوا ضُيُوفاً عَلَى نَاظِرٍ مِّنَ النُّظَّارِ فِي مِنْطَقَةٍ إِسْمُهَا « أَبُو رُكْبَة » وَهُنَاكَ مَرِضَ « تُورْشِين » وَالِدُ عَبْـدالله ٱلتَّعَايْشِي ثُمَّ مَاتَ فَدُفِنَ فِي هَذِهِ المِنْطَقَة.

كَانَ « عَبْـدُاللهِ ٱلتَّعَايْشِي » وَهُوَ فِي هَذَا الْمَكَان « أَبُو رُكْبَة » يَسْمَعُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ خَبَراً عَن رَجُلٍ صَالِحٍ إِسْمُهُ « مُحَمَّد أَحْمَد » وَيَسْكُنُ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي جَزِيرَةٍ إِسْمُهَا « أَبَا ». فَدَخَلَ الشَّوْقُ فِي نَفْسِ عَبْـدِاللهِ التَّعَايْشِي لِيَرَى هَذَا الرَّجُلَ الصَّالِحَ. وَذَاتَ مَرَّةٍ رَكِبَ حِمَارَهُ وَاتَّجَهَ إِلَى الجَّزِيرَة « أَبَا » وَسَارَ فِي سَفَرٍ طَوِيلٍ جِداً إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى « مُحَمَّد أَحْمَد الْمَهْدِي »



لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْهُ فِي الْجَزِيرَةِ « أَبَا » وَإِنَّمَا وَجَدَهُ فِي مِنْطَقَةٍ إِسْمُهَا « ٱلْمُسَلِّمِيَّة »، وَكَانَ الْمَهْدِيُّ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْت يَعْمَلُ قُبَّةً عَلَى قَبْرِ شَيْخِه « الشَّيْخُ ٱلْقُرَشِي ».

فَرِحَ « عَبْـدُاللهِ التَّعَايْشِي » فَرَحاً شَدِيداً عِندَمَا قَابَلَ « ٱلْمَهْدِيَّ »، وَقَـدْ فَـرِحَ بِـهِ « ٱلْمَهْـدِيُّ » كَذَلِك. وَأَخَذَهُ « ٱلْمَهْدِيُّ » إِلَى ٱلْجَزِيرَة « أَبَا » لِيَعِيشَ مَعَهُ. وَفِي يَوْم مِّنَ الْأَيَّامِ قَالَ « مُحَمَّـد آحْمَد » لِعَبداللهِ ٱلتَّعَايْشِي : « إِنَّنِي سَأَبُوحُ كل بِسِرٍّ — أَيْ شَيْئًا فِي نَفْسِي — لَكِن بَعْد أَنْ تَحْلِفَ أَنْ لَا تَقُولَهُ لِأَحَدٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ». فَحَلَفَ عَبْـدُاللهِ التَّعَايْشِي عَلَى ذَلِك.

فَقَالَ الْمَهْدِيُّ لِعَبْـدِاللهِ : « هَذَا السِّرُّ هُوَ : أَنَّنِي أَنَا « ٱلْمَهْدِيّ » ». وَكَانَ عَبْـدُاللهِ ٱلتَّعَايْشِي هُوَ أَوَّلُ إِنسَانٍ أَخْبَرَهُ « مُحَمَّد أحْمَد » بِأَنَّهُ هُوَ « ٱلْمَهْدِيّ »،

وَلِـذَلِكَ كَـانَ « ٱلتَّعَايْشِـيُّ » هُـوَ أَوَّلُ خَلِيفَـةٍ « لِّلْمَهْدِيّ ».

عِندَمَا مَـاتَ « ٱلْمَهْـدِيُّ » كَـانَ « عَبْـدُاللّٰهِ التَّعَايْشِي » خَلِيفَتَهُ الأَوَّلَ. فَنَظَّمَ بِلاَدَ السُّودَانِ، وَعَمِلَ الْمَحَاكِمَ لِيَحِلَّ بِهَا مَشَاكِلَ النَّاسِ، وَأَخَذَ ٱلضَّرائِبَ ــ أَيْ الأَمْوَالَ ــ لِيُقَوِّي بِهَا ــ الدَّوْلَةَ، وَكَانَ دَائِماً يَجْلِسُ مَعَ الْعُلَمَاءِ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُم، وَكَانَ يَقُولُ لِبَعْضِ آلنَّاسِ : « قَلِّدْ عَالِمْ، تَخْرُجْ سَالِمْ ».

وَقَالَ لِلجَّيْشِ : « لاَ بُدَّ أَنْ تَحْفَظُوا ٱلْقُرْآنَ ٱلكَرِيمَ ». فَحَفِظَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِّنَ ٱلْجَيْشِ، وَمِـنَ

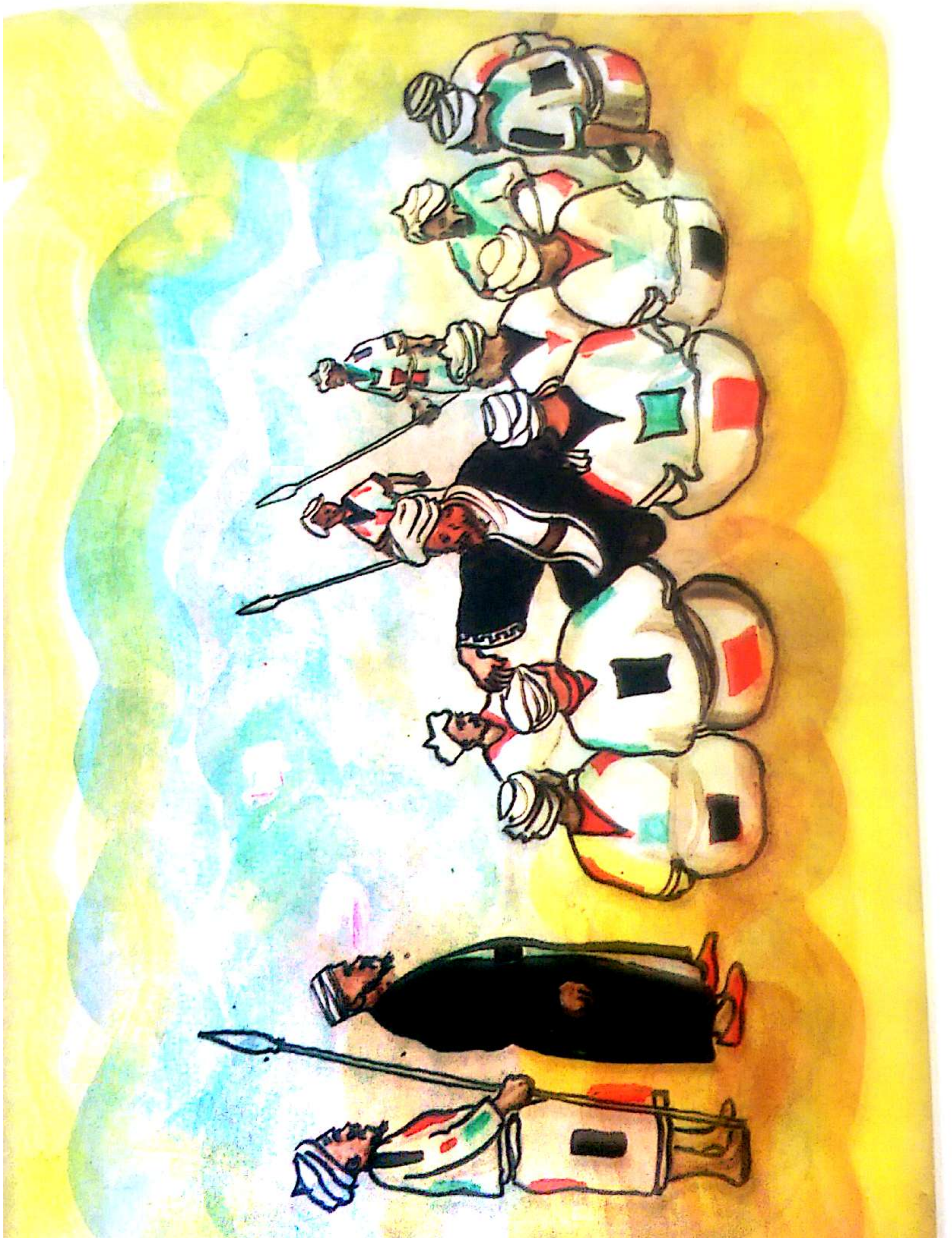
الرِّجَالِ الْكِبَارِ ـ أي ٱلعَجَائِز ـ ٱلْقُرْآنَ الْكَرِيمَ. فَكَانَ النَّاسُ يَقْرأونَ كِتَابَ اللهِ كَثِيراً وَيَحْفَظُونه.

سَمِعَ بَعْضُ ٱلعُلَمَاءِ كَلاماً قَالَهُ رَئِيسُ الْعُلَمَاءِ وَٱسْمُهُ الشَّيْخ « مُحمَّد الْبَدَوِي »، وَكَتَبُوا كَلَامَهُ فِي وَرَقَةٍ وَأَعْطُوهَا لِلْخَلِيفَةِ. فَقَرأَ الْخَلِيفَةُ « الْوَرَقَةَ »



فَوَجَدَ فِيهَا : « لاَ تَجُوزُ الصَّلاَةُ وَرَاءَ الْخَلِيفَةِ لأَنَّهُ جَاهِلٌ لاَ يُحْسِنُ الصَّلاَةَ ». فَنَادَى الْخَلِيفَةُ « الشَّيْخ مُحَمَّد الْبَدَوِي » وَسَلَّمَهُ الْوَرَقَةَ وَقَالَ لَهُ : «هَلْ قُلْتَ أَنْتَ هَذَا الكَلَامَ ؟ »

فَقَالَ الشيْخُ مُحَمَّد الْبَدَوِي : « نَعَمْ أَنَا قُلْتُ هَذَا الْكَلَامَ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِين كَتَبُوا هَذِهِ الْوَرَقَةَ كُلُّهُم مُخْلِصُونَ وَكَلامُهُم صَحِيح ! » ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ لِلْخَلِيفَةِ : « إِعْمَلْ مَا تُرِيد ! ». فَتَعَجَّبَ الْخَلِيفَةُ مِن شَجَاعَتِهِ ثُمَّ قَالَ لِلشَّيْخ : « أَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ ثَابِتٌ وَشُجَاعٌ، وَأَنَا لاَ أُطْفِئُ بِيَدِي هَذِهِ نُوراً مِثْلَكَ، فَلاَ شَيْءَ عَلَيْكَ. وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَنصَحَكَ لِتَبْعُدَ عَنْ هَؤُلَاءِ النَّاس ». وَعَفَا « الْخَلِيفَةُ » عَنِ الشَّيْخِ « الْبَدَوِي » وَلَمْ يُؤْذِهِ أَبداً.



إِسْتَمَرَّ الْخَلِيفَةُ يَحْكُمُ السُودَانَ ثَلاثَةَ عَشرَ عَاماً، ثُمَّ جَاءَ « الْإِنجِلِيزُ » لِيُحَارِبُوا السُّودَانَ، وَكَانَ قَائِدُ الْإِنجِلِيزِ رَجلٌ إِسْمُهُ « كِتشِنَر ». وَوَقَفَ الْخَلِيفَةُ يَحْمِلُونَ سِلاحاً قَوِيًّا وَجَيْشاً مُدَرَّباً، فَلَمْ يَسْتَطِعْ الْخَلِيفَـةُ هَزْمَهُـم. فَتَـرَكَ الْخَلِيفَـةُ « أُمْ دُرْمَـان » وَذَهَبَ إِلى « قِدِير »، وَطَارَدَهُ الْإِنجِلِيزُ في كُلِّ مَكَان.

كَانَ الْخَلِيفَةُ يَزُورُ الْغَارَ الَّذِي كَانَ يَتعبَّدُ فِيهِ الْمَهْدِي فِي مِنْطَقَةِ « قِدِير » وَيَقْعُدُ دَاخِلَ الْغَارِ أَيَّاماً كَثِيرَةً. ثُمَّ يَذْهَبُ مِنَ الْغارِ ــ أَيْ مَكَانِ الْعِبَادَةِ ــ لِيَزُورَ قَبرَ وَالِدِهِ فِي « أبو رُكْبَة »، وَبَنَى كُوخاً صَغِيراً فِي جِوَارِ قَبْرِ وَالِدِهِ لِيَجْلِسَ فِيه.

عَاشَ الْخَلِيفَةُ فِي مِنْطَقَةِ قِدِير وَمَعَهُ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ الْجَيْشِ، عَاشُوا فِي تَعَبٍ شَدِيد، وَعِندَمَا كَانَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِم التَّعَبُ وَلاَ يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَهُ كَانَ

الْخَلِيفَةُ يُرْسِلُ عَدداً مِن جَيْشِهِ لِيُحَارِبُوا وَيَأْتُوا بالأَكْلِ..

وَتذَكَّرَ «الْخَلِيفَةُ» في يَوْمٍ مِّن تِلْكَ الأَيَّامِ كَلَامَ وَالِدِهِ «مُحَمَّد تُورْشِين». لَقَدْ قَالَ لَهُ: «إِنَكَ يَا عَبْدَاللهِ سَتَشُقُّ طَرِيقَكَ إِلى ٱلْمَجْدِ ــ أَي الْخَيْرِ ــ وَالْقُوَّةِ، وَحِيداً عَلَى ظَهْرِ حِمَارٍ، وَلَكِنْ سَيَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي تَقُودُ فِيهِ جَيْشاً يَمُوتُ أَكْثَرُهُم فِي الْحَرْبِ، وَتَعُودُ ــ مُنْهَزِماً ــ كَمَا بَدَأْتَ رِحْلَتَكَ الأُولَى عَلَى ظَهْرِ حِمَارٍ». وَهَزَّ الْخَلِيفَةُ رَأْسَهُ فِي تَعَجُّبٍ وَسَكت.



أَخذَ ٱلْإنجليزُ يُطارِدُونَ الْخَلِيفَةَ، وَالْخَلِيفَةُ لَا يَجِدُ مَنْ يَكُونُ مَعَهُ لِيُحَارِبَ بِهِمْ ٱلْإنجليزَ مَرَّةً ثَانِيَةً.. فَيَئِسَ الْخَلِيفَةُ ــ أَيْ تَأَكَّدَ مِنَ الْمَوْتِ ــ وَقَامَ يَتَكَلَّمُ فِي أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُمْ : « أَنتُمْ كُنتُمْ مَعِي طِوَالَ الْمُصَارَعَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، وَقَدْ خَسِرْتُ فِي أُمِّ دُرْمَان.. وَقَدْ قَرَّرْتُ هُنَا مُقَابَلَةَ الْعَدُوِّ وَالْإِسْتِشْهَادِ، وَأَنَا أُحَلِّلُكُمْ جَمِيعاً مِنْ بَيْعَتِي، وَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ الآنَ قَبْلَ هُجُومِ الْعَدُوِّ فَلْيَفْعَلْ وَأَنَا عافٍ وراضٍ عَنِ الْجَمِيعِ.. » وَبَعْد هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَحَاطَ بِهِ الْقَائِدُ الْإنجليزي « وِنْجِتْ » فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَن يَنزِلَ أَصْحَابُهُ مِن حَصِينِهِمْ، وَفَرشَ فَرْوَتَهُ وَجَلَسَ عَلَيْهَا، فَجَاءَتْهُ « طَلْقَةٌ » مِنَ الْعَدُوِّ فِي ذِرَاعِهِ الْيُسْرَى فَقَبَضَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ ٱلْيُمْنَى، ثُم جَاءَتْهُ ثَلَاثُ طَلَقَاتٍ أَصَابَتْهُ إِحْدَاهَا فِي قَلْبِهِ فَمَاتَ، وَوَقَفَ « أبو جكة » لِيَحُولَ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ والرَّصَاص فَمَاتَ قَبْلَ الْخَلِيفَة.

